تأطير إشكالي عام لمجزوءة المعرفة

عندما يتجاوز الفكر، من خلال سلسلة من العمليات الذهنية، ليعالج موضوعًا خارجيًا أو يتعامل مع الذات، بهدف الفهم، أو الوصف أو التوضيح أو التنبؤ، نطلق عليه اسم المعرفة بشكل عام. ولكن، عندما يوجه هذا التفكير نحو موضوع خارجي ولا يتدخل الذات فيه، نسميه المعرفة العلمية، وهو ما يؤدي إلى العلوم التي نعرفها عادة بـ"العلوم الحقيقية". وعندما يكون محور المعرفة هو الذات ذاتها، حيث يكون من الصعب فصل الذات الباحثة عن الموضوع المبحوث، مع الصعوبات المرتبطة بتحقيق الموضوعية، نتحدث عن علوم الإنسان أو الدراسات الإنسانية، وفقًا لتعبير لويس ألتوسير. وفي كلا الحالتين، نتعامل دائمًا مع الذات والموضوع والعلاقة المحتملة بينهما، وهذه العلاقة تتراوح بين الفصل التام وبين العجز عن فصل الذات عن الموضوع. العلاقة بين الذات والموضوع تمثل التحدي الرئيسي للمعرفة بشكل عام وللمعرفة العلمية خصوصًا، سواء كانت طبيعية أم إنسانية.

استنادًا إلى هذا، يبدو أن التوازن بين الجانب الذهني (أو المرتبط بالذات) والجانب الواقعي (أو المتعلق بالموضوع) يحتل مكانًا مركزيًا في تطور وبناء المعرفة العلمية. وهكذا يطرح السؤال: هل يمكن بناء هذه المعرفة فقط من خلال البنية الذهنية، أم أنها تحتاج إلى موضوع دراستها في الواقع لتصبح نظرية علمية؟ هذا السؤال يبرز التحدي الرئيسي بين النظرية والتجربة. فإذا كان العلم يتعلق بواقع معين، كما يقول بعضهم، يجب علينا أن نأخذ هذا الواقع كنقطة انطلاق لبناء أي نظرية وتحقق صحتها. وربما هي هذه العملية التي تجعلنا نناقش مفهومي التجريب والتجربة. فماذا نعني بالتجريب؟ وماذا نعني بالتجربة؟ هل يمكن اعتبارهما نفس المفهوم أو لهما معاني مختلفة، على الرغم من التداخل المحتمل بينهما؟ ويجلب لنا مفهوم التجربة سؤالًا آخر: هل التجربة تتعلق دائمًا بالعملية التي تتم في المختبر تحت شروط محددة، أم أن لها معنى آخر يجعلها خالصةً ذهنيًا؟

وسواء كانت المعرفة العلمية مؤسسة وقائمة على تجارب مخبرية أو على تجارب عقلية نظرية صرفة فإن ذلك هو ما سيقودنا بالضرورة الى التساؤل عن طبيعة العقلانية العلمية: فهل تعتبر هذه العقلانية عقلانية مشروطة بالتجربة في مسار بنائها أم أنها قادرة على أن تكون مجرد أفكار تربط بينها قوانين وتشق منها قضايا بواسطة الاستنباط المنطقي أم أنها ليست لا هذا ولا ذاك، أو هذا وذاك في نفس الوقت بحيث يستلزم بناؤها اعتماد الحوار المتبادل بين ماهو عقلاني وماهو تجريبي، حتى يحصل ذلك اليقين المزدوج، الذي يجعل الواقع خاضعا لما هو عقلي، مثلما يجعل الحجج العقلية المرتبطة بالتجربة لا تخرج عن نطاقها (باشلار) ؟

انطلاقا من مجمل التساؤلات السابقة، يمكننا أن نثير إشكالا مرتبطا بسابقيه،و يتعلق الأمر بمعايير علمية النظريات العلمية. فما هي المعايير التي يمكن اعتمادها للحكم على علمية نظرية ما أو عدم علميتها؟ هل يكون لزاما علينا أن نعدد الاختبارات التجريبية وألا نكتفي بالاختبار الواحد، أو التجربة المعزولة حتى نقول عن تلك النظرية بأنها نظرية علمية (تويليي) أم أنه يلزم أن نركز على بنائها الداخلي الذي ينبغي أن يقوم على نسق من القضايا، يتم استنباطها من عدد قليل من المبادئ وفق قواعد التحليل الرياضي،و بعيدا عن أية وقائع محسوسة (أينشتين)، أم أنه ينبغي اعتبار القابلية للتكذيب، القائمة على القدرة على تفنيد نظرية ما باعتبارها نظرية غير تجريبية، من خلال تبيان العيب الممكن فيها، هو ما يمكن أن يمنح لتلك النظرية طابعها العلمي (كارل بوبر)؟

وإذا كان هذا ينطبق على العلوم المسماة علوما حقة، فإن العلوم الإنسانية تطرح إشكالات من نوع آخر، ولعل أهمها هو صعوبة موضعة الظاهرة الإنسانية، فإلى أي مدى يمكن الفصل بين الذات والموضوع عندما يكون هذا الموضوع ذاتا أخرى؟ (بياجيه) كيف يمكن للباحث الاجتماعي الانفصال الكلي عن المجتمع الذي يعيش فيه حتى يضمن الموضوعية المنشودة (بيستيان)؟ وهل يمكن اعتبار صعوبة موضعة الظاهرة المدروسة مقرونا بالعلوم الإنسانية وحدها، أم أن العلوم الحقة المعاصرة تجد نفس الصعوبة (ستراوس)؟ ما هو الهدف الذي تسعى إليه هذه العلوم، هل هو هدف يقوم على التفسير أم على التنبؤ، أم عليهما معا (ستراوس)؟ وبصفة عامة ما طبيعة منهج العلوم الإنسانية؟ هل يمكنها اقتباس منهج العلوم التجريبية أم أنها مطالبة بالبحث عن مناهج تلائم طبيعتها (دولتاي – بوبر)؟ هل يمكن أن تشكل العلوم التجريبية نموذجا يقتدى به من طرف العلوم الإنسانية (طولراووارينيي) أم أن العلم ماهو إلا تعبير عن المعيش بنوع من القصدية (ميرلوبونتي)؟ هل يعتبر كل من الاقتداء بالعلوم التجريبية أو عدم الاقتداء بها خالين مما يحول دون دراسة الظواهر الإنسانية دراسة علمية (لادريار)؟

إن كل معرفة سواء كانت معرفة علمية أو غير علمية، إنما هي سعي الى امتلاك الحقيقة، حقيقة الأشياء حقيقة الذات، حقيقة الأفكار، حقيقة الأفعال... وليس الى الباطل أو اللاحقيقة، إلا أن هذا السعي يفضي بالضرورة الى حقائق متعددة ومختلفة ومتعارضة، الأمر الذي يجعل منها حقائق تجمع بين الحق والباطل، بين الحقيقة والرأي. انطلاقا من ذلك يمكننا أن نتساءل: ما علاقة الحقيقة بالرأي؟ هل يشكل الرأي نوعا من الحقائق أم أنه لا يعدو أن يكون مجرد انطباع ذاتي، لا يمكنه أن يرقى الى مستوى الحقيقة؟ هل بإمكاننا أن نعتبر الرأي قادرا على أن يمنحنا حقائق قائمة على القلب والغريزة، باعتبارهما مبدأين للاشتغال العقلي، أي للاستنباط (باسكال)؟ أم أن الحقيقة – ومن ضمنها الحقيقة العلمية – لا يمكنها أن تقوم على الرأي، لأن هذا الأخير لا يفكر أو لنقل إنه يفكر بشكل سيء الأمر الذي يجعله عائقا أمام قيام المعرفة

العلمية (باشلار)؟ ألا يملك الرأي قيمة علمية عندما يكون مؤسسا على أعلى درجات الاحتمال، الأمر الذي يمكن أن يجعله قدوة لباقي المعارف (ليبنتس)؟

إن تجمل تساؤلاتنا بخصوص العلاقة بين الحقيقة والرأي، تدفعنا بشكل ضروري نحو تقديم الاستفسار حول معايير الحقيقة. فعلى أي أسس يجب أن تقام الحقيقة لكي تكون مستحقة لهذه التسمية؟ هل يجب أن ترتكز على الحدس والاستنباط، حيث يعد الحدس تصورًا نابعًا من عقل نقي ومستيقظ، والاستنباط هو ما يمكن استخلاصه بشكل ضروري من مفاهيم أخرى (ديكارت)؟ وهل يكون البساطة والوضوح والتفريق كافيًا لجعل فكرة معينة حقيقية، أو هل يتطلب الأمور أن ترتكز هذه الحقيقة على دليل صحيح، سواء على الصعيد المادي أو الصعيد الشكلي (لايبنتس) أم أنه يجب أن نبحث عن معيار الحقيقة في ذاتها معتمدين على يقينها وكمالها (اسبينوزا)؟

إن مجموع تساؤلاتنا المتعلقة بمعيار الحقيقة، يعود بشكل أساسي إلى أن الحقيقة تمتلك قيمة لا يستطيع أحد التقليل منها، لأنها هي الهدف الذي يطمح إليه كل إنسان. لكن الاستفسار الذي يطرح هو: من أي مكان تحصل الحقيقة على قيمتها؟ هل تأتي من تلك الضلال التي تحكم حياة الإنسان وتنتمي إلى جوهره الداخلي وتجعله معرضًا للخطأ (هيدجر)؟ أو هل تحصل الحقيقة على قيمتها من كونها نقيض الخطأ أو نقيض العنف، حيث يحدث التحول من تطابق الفكر والواقع إلى التطابق بين الإنسان وفكره أو الخطاب المنسق الذي يدرك ما يفكر فيه ويفكر فيما يعرفه (إريك فايل)؟ أو هل يمكن أن نقول إن الحقيقة تحصل على قيمتها من كونها ما يمكن أن يجعلنا نبقى ونستمر، حتى من خلال تلك الأوهام التي نسينا أنها مجرد أوهام بسبب الاستخدام المستمر وتدخل اللغة التي تعتمد على المجاز والإشارات والتشبيهات (نيتشه)؟

من الواضح أن التحديد الذي كان يحكم معظم تساؤلاتنا حول المعرفة، سواء كانت علمية أو غير علمية، وحول الحقيقة هو في الأساس ثنائية الذات والموضوع، حيث الذات تعرف والموضوع هو محل المعرفة، وكل التحديات التي يمكن أن تثار نتيجة لذلك سواء على مستوى الذات أو الموضوع أو على الاثنين معًا.